بين الأدب والنقد الأدبي ونقد النقد

أ.د. عبد النبي اصطيف

"كل روائي، كل شاعر، مهما كان المنعرج الذي تسلكه النظرية الأدبية، يفترض فيه أن يتحدث عن أشياء وظواهر، حتى ولو أنها متخيَّلة، وخارجية، وسابقة بالنسبة للغة: العالَم يوجد والكاتب يتحدّث، ذاك هو الأدب. وغرض النقد مختلف جداً، إن غرض النقد ليس "العالَم" وإنما إنشاء discourse ما، إنشاء شخص آخر: النقد إنشاء عن إنشاء؛ إنه لغة ثانية، أو لغة عن اللغة Meta Language (كما يمكن للمناطقة أن يقولوا)، تعمل في لغة أولى (أو اللغة–الموضوع). ويتبع هذا أن على اللغة النقدية أن تتعامل مع نوعين من الصلات: صلة اللغة النقدية بلغة المؤلَّف المدروس، وصلة هذه اللغة–الموضوع بالعالَم. إن الاحتكاك ما بين هاتين اللغتين هو ما يحدد النقد"(1).

رولان بارت

"النقد الأدبي، كما يعرفه كبير مؤرخي النقد الحديث رينيه ويليك René Wellek، إنشاء عن الأدب" وهو بهذا يشمل: "الوصف والتحليل، والتفسير، إضافة إلى التقويم، لأعمال أدبية محددة، ومناقشة مبادئ الأدب ونظريته وعلم جماله، أو ما يمكن أن ندعوه بالعلم المناقش سابقاً على أنه فن الشعر Poetics والبلاغة Rhetoric"(2).

رينيه ويليك

ثمة في الحياة الإنسانية **ثلاثة نشاطات فكرية** (تنبثق عن إعمال الفكر) **-فنية** (محكومة بمعايير وأسس وقيم ومبادئ نوعية مستمدة من طبيعة الفن المقصود) - **اجتماعية** (تهدف إلى التواصل مع "الآخر" الذي يشترك مع "الأنا" في فسحة حياة ما - مشابهة أو مختلفة) تتصل جميعها برغبة الإنسان المتأصلة في التفكير والتعبير والتواصل مع "الآخر"، وتنتهي بثلاثة ضروب من الإنشاء اللغوي language discourse.

- وأول هذه النشاطات يهدف إلى إنتاج واحد من أهم الفنون الجميلة، أي الأدب كتابةً أو شفاهاً، وبأداة تعدّ من أهم أدوات التفكير والتعبير والتواصل مع "الآخر" هي اللغة الطبيعة(3) natural language؛
- وثانيها النشاط الذي يتوخّى إنشاء كلام يدور حول كلام آخر هو "الأدب"، أو ما ندعوه بالنقد الأدبي، وهو المعرفة المنظمة عن الأدب، والتي تستخدم كذلك "اللغة الطبيعية" أداة لها، وإن كان هذا الاستخدام محكوماً بمعايير ونظم ومبادئ وقيم مختلفة عن نظيراتها التي تحكم الإنشاء الأدبي؛
- وثالثها النشاط الذي يهدف إلى إنتاج نقد النقد meta-criticism، وهو كذلك معرفة منظمة عن المعرفة المنظمة السابقة له، تُخضِعها لضرب من التدبّر المحكوم كذلك بأعراف ومبادئ وقيم وأفكار وأطر مرجعية إضافية تختلف في جانب منها مع ما يحكم النقد الأدبي من أطر مرجعية، وإجراءات، وعمليات ذهنية، وتشترك في جانب آخر مع نظيراتها مما يحكم نقد الأدب النظري والتطبيقي، وهي تستخدم "اللغة الطبيعية" أداة لها، وإن كان ذلك الاستخدام على درجة أسمى من التجريد Abstraction الذي يستهدف المضي عمقاً في البنية العميقة Deep Structure للمعرفة المنظمة التي ندعوها بالنقد الأدبي، والتأكد من كونها متماسكة cohesive، ومتسقة coherent، أي تتمتع بالترابط المحكم فيما بين مكوِّناتها، والانسجام الداخلي فيما بين هذه المكوِّنات.

وربما كان أبرز ما يلاحظه المرء في هذه النشاطات **اشتراكها في استخدام أداة واحدة، والوشائج العضوية القائمة فيما بينها**، والتي تترك في كل منها بصمات واضحة تحدِّد مواصفاتها طبيعة هذه الصلة وعمقها.

والواقع أن استعمال النشاطات الثلاثة للغة الطبيعية لا يعني أنها تستعملها استعمالاً واحداً، أو أن أغراضها من هذا الاستعمال واحدة أيضاً. يستطيع المتفحص لوظيفة اللغة الطبيعية في الأدب أن يتبين بسهولة أنها تؤدي مجموعة من الوظائف، فثمة على سبيل المثال وظيفة معرفية تتمثل بتيسير جملة من المعارف النفسية المتصلة بالشخصية التي تعمر عالم الأدب، وجملة من المعارف الإنسانية التي تتصل

بالمجتمعات الإنسانية التي تحتضن هذه الشخصيات وثمة بعد ذلك معارف تاريخية مختلفة تيسرها على سبيل المثال الروايات والملاحم التاريخية (ومعارف جغرافية تتصل بمسارح أحداث هذه الروايات وتلك الملاحم)، وهناك معارف علمية تتصل بعالم الفضاء والمحيطات والطبيعة والجسم البشري تنقلها لنا قصص الخيال العلمي ورواياته؛ وثمة وظيفة توجيهية تؤديها هذه الأداة تتمثل بالإيحاء للقارئ بالاقتداء بنماذج معينة من الشخصيات والسلوك والعلاقات الإنسانية والاجتماعية التي تنطوي عليها الأعمال الأدبية، مثلما تتمثل بإثارة بعض المشاعر والعواطف تجاه قضايا معينة تتصل بالإنسان والعالم، أو التدليل على صحة مواقف سياسية أو فكرية أو اجتماعية والدفاع عنها وتسويغها وشرحها للقارئ، وغير ذلك مما يمكن على نحو بيِّن أن يتداخل بوظيفة الأدب عامة في المجتمع الإنساني.

ولكن هذه الوظائف المهمة والحيوية لإنتاج الأدب وتطوره ونشره، ليست الوظائف الأكثر أهمية. ذلك أن الوظيفة الحيوية والخطيرة والمحدِّدة لهوية الأدب وطبيعته هي الوظيفة الجمالية(4) التي تجعل من تأديتها من جانب اللغة، معياراً تتحدد به هوية الأدب ودرجة تساميه في سلم القيم الفنية التي تُدخِله محراب الفن الجميل. فنحن نقرأ الأدب لما ينطوي عليه من متعة نحرص عليها مكافأة لا نستغني عنها عندما نفكر في قراءة أي نص أدبي، وإلا فإننا ربما كنا نلجأ لقراءة نص آخر في التاريخ أو الجغرافية أو علم النفس، أو علم الاجتماع، أو الأنتروبولوجيا، أو الطب أو الهندسة، أو العلوم إذا ما كانت غايتنا لا تتعدى تنمية معارفنا في هذه العلوم والحقول. صحيح أننا في قراءتنا للأدب نتطلع إلى ما هو أكثر من مجرد المتعة ولكننا بالتأكيد لا نتخلى عنها سبيلاً إلى مقاربة الفوائد الأخرى، مدركين تمام الإدراك أن ما يكمن وراء أدبية الأدب هو هذه المتعة التي تثير فينا تجربة جمالية من نوع ما وتجعلنا نحس بأن ما أمضيناه من وقت وجهد لم يكن هدراً غير مسوغ، وأن ما عشناه من هذه التجربة يسوغ ما بذلناه من هذا الوقت وذلك الجهد، بل لعله يفوقهما لأنه يلبي حاجة متأصلة فينا بوصفنا بشراً لا سبيل إلى تجاهلها هي حاجتنا إلى الجميل كما يشير إلى ذلك ميخائيل نعيمة في **غربال**ه.

وربما كان من المهم الإشارة إلى أن هذه الوظيفة الجمالية ليست أكثر الوظائف التي تؤديها اللغة في الأدب أهمية فقط، بل هي الوظيفة المهيمنة(5) على سائر الوظائف الأخرى والمتحكمة بها، والناظمة لها في هرمية تتسنم -بوصفها الوظيفة المحددة لهوية الأدب أو بوصفها سر أدبية الأدب - الذروة فيها دون كبير منازعة من نظيراتها الوظائف الأخرى التي تقنع بسفوح الهرم أو حتى عتباته.

وحال النص الأدبي والوظائف المختلفة التي تؤديها اللغة فيه والتي تسودها الوظيفة الجمالية، وتحكمها وتنظمها في هرمية تتربع على ذروتها يشبه حال الجامع الأموي الذي يعد بحق آية الفن المعماري الإسلامي والذي يقصده الناس من شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه ليستمتعوا به صرحاً يشهد على روعة العمارة الإسلامية في العصر الأموي. فالجامع الأموي يؤدي جملة من الوظائف المهمة في حياة مدينة دمشق بوصفها عاصمة للجمهورية العربية السورية وحياة أهلها بوصفهم سكان أقدم مدينة مأهولة على وجه البسيطة. وإذا ما رغب المرء في الحديث عن هذه الوظائف فإنه يمكن أن يذكر بداية وظيفة المسجد الذي يؤدي فيه المصلون كل يوم صلواتهم الخمس؛ ووظيفة الكلية أو المدرسة التي ينهض بها المجتمع المدني الدمشقي من خلال حلقات التدريس المختلفة التي تشمل العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والتي يتولاها علماء دمشق ومجاوريها من العلماء الوافدين؛ ووظيفة الإفتاء والنصح والإرشاد والتوجيه التي يقدمها هؤلاء العلماء لقاصديهم من سكان دمشق وما حولها كلما اعترضت حياتهم مسألة تتطلب معرفة حكم الله فيها؛ ووظيفة الاستراحة والنزهة لمتسوقي أسواق دمشق القديمة الذين يقصدون الجامع الأموي للراحة والوضوء والصلاة واللقاء بالأقارب والأصدقاء في نقطة علام لا يُضل إليها السبيل؛ ووظيفة المسجد الجامع في تيسير مكان واسع رحب لصلوات الجمعة والأعياد والمناسبات الدينية المختلفة، ومما يتصل بهذه الوظيفة تأدية السيد رئيس الجمهورية لصلاة العيدين ولقائه الناس والحديث معهم ومشاركتهم احتفالاتهم بهذين العيدين؛ ووظيفة زيارة أضرحة الأنبياء والصحابة وآل البيت للتبرك بها وتقديم النذور لها من شموع، وأموال، وقراءات، وصدقات توزع على الفقراء والمساكين ممن يجلسون في فسحات هذه الأضرحة انتظاراً لما يمكن أن يصيبهم من خيرها؛ ووظيفة المتعة الفنية الخالصة التي يؤديها بنيان الجامع لعشاق العمارة الإسلامية من العرب والمسلمين وغيرهم ممن يقصدون دمشق للاستمتاع بهذه التحفة المعمارية الرائعة مسجداً وصحناً وأروقة ومآذن ولوحات فسيفسائية لا نظير لها في الجمال والروعة وفنوناً من الزخرفة والخط والتزيين مما يحفل به داخل المسجد ومحاريبه وسقفه وجدرانه. وربما كان هناك وظائف أخرى يؤديها هذا الجامع ولكن هذه الوظائف تتفاوت في أهميتها، وفي موقعها على البنية الهرمية التي تنتظم فيها، والتي تمليها عادة حاجات المجتمع ومعاييره واهتماماته والتي تخضع جميعها

للتغير والتطور. والملاحظ لهذه الوظائف المختلفة التي يؤديها هذا المسجد الجامع يستطيع أن يتبين أن الوظيفة المهيمنة فيها والناظمة لسائر الوظائف والمتحكمة بها هي الوظيفة الجمالية التي يسعى المجتمع إلى تعزيزها بوصفها مصدر فخر واعتزاز، فضلاً عن كونها مصدراً للدخل الوطني المتمثل بما ينفقه السياح والزوار من أموال في سبيل زيارتهم له بوصفه معلماً بارزاً من معالم دمشق. ولولا ذلك لكان بالإمكان إشادة بناء أكثر معاصرة وربما حداثة وجدوى اقتصادية في الفسحة ذاتها التي يشغلها المسجد الجامع.

وربما كان من أبرز خصائص اللغة في النص الأدبي، فضلاً عن سيادة الوظيفة الجمالية فيها سائر الوظائف الأخرى، أنها لغة مشحونة بأقصى الطاقات التعبيرية، ومحملة بأغنى الدلالات. والسبب في ذلك أنها مشحونة بالتراث الثقافي للمجموعة اللغوية(6) التي تنتمي إليها، وبالتالي للأمة التي تتخذها أداة تعبير وتواصل وتفكير. وهي لذلك لغة موحية بما يحيط بها من ظلال ممتدة عبر القرون.

وبسبب من هذا كله نرى أنها موضع عناية الناقد، فهي موضوع درسه وتفحصه وبوصفها أداة تخضع للشرح والتحليل والنظر الدقيق في جميع وجوهها فإنها تكون باستمرار موضع اختبارات وتجارب ومغامرات يقوم بها مرسلها ومتلقيها، منشئها وقارئها، كاتبها وناقدها، وهي في كل ذلك تحيل على نفسها مصدراً للمتعة والفائدة والإيحاء والإلهام والإثارة وتوليد المشاعر والدلالات، أو في إثارة التجربة الجمالية التي ينطوي عليها النص الأدبي.

فاللغة الطبيعية في الأدب تؤدي عدة وظائف، غير أن أهمها هي الوظيفة الجمالية(7) التي تهيمن على سائر الوظائف الأخرى وتتحكم بها وتنظمها في هرمية hierarchy تتسنم ذروتَها، منتزعة لنفسها منزلة السائد المهيمن. ولما كانت اللغة الطبيعية في الأدب أداة مشحونة بالموروث الثقافي للمجموعة اللغوية التي تنتمي إليها(8)، فإنها تصبح لغة موحية أو "شديدة التضمين"(9) connotative، وتغدو علامةً sign تشير إلى ذاتها أكثر مما تشير إلى مدلولها referent بلجوء صاحبها إلى ضروب من المحسنات اللفظية والمعنوية المعروفة في كل لغة.

أما اللغة الطبيعية في الإنشاء النقدي/أو النقد الأدبي فإن الوظيفة المهيمنة فيها هي تسهيل عملية التفكير المنظم عن الأدب، ولذلك فإنها **لغة مصطلحات محددة الدلالة**، وهي كذلك **لغة واصفة Descriptive** تصف بوضوح ودقة لغة النص الأدبي، فهي إذن **ميتا -لغة** meta-language، أو **لغة عن اللغة(10)**،

فضلاً على كونها **لغة شارحة Explanatory**، **ولغة مرتبطة بإطار مرجعي frame of reference** أشمل، وبخاصة عندما يستلهم النقد الأدبي معارف إنسانية أخرى كاللسانيات، أو علم النفس، أو علم الاجتماع، أو الفلسفة، يرى فيها كبير عون في فهم التجربة الفنية التي ينطوي عليها العمل الأدبي.

ولما كانت وظيفة اللغة الطبيعية في إنشاء "**نقد النقد**" مرتبطة بتسهيل عملية تحليل النص النقدي وتفحص آليات التفكير والمحاجة المستخدمة فيه، واختبار وضوح المصطلح النقدي ودقته ووثاقة صلته بالنص الأدبي، فإنها تصبح أكثر تجريداً من لغة النقد الأدبي، خاصة وأنها تنصرف بشكل رئيسي إلى العناية بتماسك النص النقدي، واتساقه وانسجامه الداخلي، بغرض ضمان سلامة إجراءاته وأدواته وأدائه لوظيفته في خدمة النص الأدبي، وخدمة منتِجه ومستهلِكه والمجتمع الذي ينتج فيه.

وعند النظر إلى الوشائج التي تربط ما بين هذه النشاطات الثلاثة فإن المرء يتبين بوضوح مدى وثاقتها. فالأدب يعتمد في إنتاجه أساسًا على نظرية ضمنية في الأدب طبيعةً ووظيفةً وحدوداً، ويقوم مؤلِّفه، استناداً إلى هذه النظرية، بممارسة عملية للنقد الذاتي تتمثل بالحذف والإضافة والشطب والمحو والتنقيح والتعديل وغير ذلك مما يعرفه الأدباء المحكِّكون.

وكذلك فإن هذا المؤلِّف يتفاعل باستمرار مع النقد الذي يتدبّر نصوصه ويسعى إلى تطوير ممارسته استناداً إلى معطيات هذا الأخير: يستدرك ما يُلاحَظ في أدائه من ثغرات، أو أخطاء، ويستكشف ما يُقترَح عليه من آفاق ويعمّق ما يُعَدُّ واعداً وإيجابياً في كتاباته، مما يؤكد بالمجمل وثاقة الصلة ما بين الأدب والنقد الأدبي النظري والتطبيقي.

ويتمتع النقد الأدبي بدوره، سواءً أكان نقداً أدبياً تطبيقياً أم نقداً أدبياً نظرياً، بعلاقة عضوية بالأدب، فالأدب هو موضوعه الذي يمنحه هويته، فهو نقد يُنسب إلى الأدب، والناقد عندما يتدبّر النص الأدبي فإنه يفصح عما يحكمه ضمناً من أنظار وأفكار ومعايير نقدية يلتزم بها صاحبه، أي أنه يفصح عن النظام الأدبي literary system الذي يحكم عملية الإنتاج الأدبي أو ما يمكن دعوته بنظرية الأدب الداخلية.

وعندما نخلُص أخيراً إلى نقد النقد نتبين مباشرة أنه وثيق الصلة بموضوعه أي النقد الأدبي من جهة، وبموضوع موضوعه أي الأدب من جهة أخرى، ولذلك فإن إجراءاته، ومعاييره، وأعرافه، وقيمه مرتبطة على نحو أو آخر بموضوعه

وموضوع موضوعه. ذلك أنه أساساً يتفحص في النص النقدي ما هو ضمني من إجراءات ومحاجّات، وتحليلات، وموازنات، ومقارنات، ويُمحِّص مقدار تماسكه ومدى انسجامه الداخلي. ولذا نراه يتوقف عند المصطلح النقدي ويختبر مدى وضوحه ودقته، وطبيعة علاقاته بالمحدّدات المختلفة التي تحكم دلالاته، كما يعنى بتماسك بنية النص النقدي واتساقه، ومدى ملاءمته لطبيعة النص الأدبي، ومدى اتساقه مع معطيات التاريخ الأدبي القومي من جانب، وينظر من جانب آخر إلى تفاعل هذا النص مع أية نصوص أخرى من التقاليد النقدية العالمية، وما خلَّفه هذا التفاعل من آثار في بنيته أو تقاناته أو موضوعه، أو عناصره المكوّنة، أي أنه يسعى إلى تبين موقع هذا النص في إطار أوسع من النقد العالمي، ذلك أن الإنسان واحد، وفنه واحد، وأدبه واحد، ونقد أدبه، من ثَمَّ، أينما أُنتِج، وأنّى أُنتِج، واحد، ومن الطبيعي أن يستجيب إلى القيم والمبادئ الفنية والجمالية الإنسانية المشتركة.

الهوامش

1) انظر:

Roland Barthes,
"What is Criticism", in: ***Debating Texts: A Reader in 20TH Century Literary Theory and Method,*** Edited by Rich Rylance (Open University Press, Milton Keynes, 1987), pp 83-4.

2) انظر:

René Wellek, "Literary Criticism" in: What is Criticism?, Edited with an Introduction by Paul Hernadi (Indiana University Press, Bloomington, 1981), p.297.

3) انظر: رينيه ويليك وأوستن وارين، ***نظرية الأدب***، ترجمة محي الدين صبحي، مراجعة د. حسام الخطيب، ط 3 (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985) ص 21.

4) انظر حول طبيعة الوظيفة الجمالية مقالة يان موكاجوفسكي ، أبرز أعضاء حلقة براغ اللغوية:

Jan Mukarovsky, "Poetic Reference", in: Semiotics of Arts: Prague School Contributions, Edited by Ladislav Matejka and Irwin R. Titunik (The MIT Press, Cambridge, Ma., and London, 1984), pp.155-63.

5) بالمعنى الذي أشار إليه رومان جاكبسون، وانظر:

Roman Jakobson, "The Dominant", in his: ***Language in Literature***
(Harvard University Press, Cambridge, Ma. and London, 1987), pp.41-46.

6) انظر:

René Wellek and Austin Warren, Theory of Literature, 3rd Edition (Penguin Books, Middlesex, 1963), p.22.

7) انظر رينيه ويليك وأوستن وارين، ***نظرية الأدب***، ص 24.

8) انظر **المرجع السابق**، ص 21.

9) انظر **المرجع السابق**، ص 22.

10) انظر:

Roland Barthes, "What is Criticism", in: Debating Texts: A Reader in 2th Century Literary Theory and Method, Edited by Rich Rylance (Open University Press, Milton Keynes, 1987), pp. 83-4.